شَخْصِيَّات

الإمام ابن غازي العالم العامل المجاهد

للأستاذ محمد سلامة

مر المغرب بمرحلة حادة من تاريخ نضاله الطويل هي بالضبط قرن ونصف من الزمان ابتدأت من انهيار دولة بني مرين في منتصف القرن التاسع الهجري أو قبيل ذلك بقليل وانتهت عند معركة وادي المخازن الخالدة سنة 986 هـ ــ 1578 م (1) .

انتاب المغرب خلالها سلسلة من حروب داخلية وخارجية مريرة ضعف سلطان الدولة الرسمي ازاءها وانهارت قواها عن تلافيها ومقاومتها. فقد حدثت فتن وثورات بالداخل للتنازع على الحكم بين بني مرين والوطاسيين اولا ، ثم بين الوطاسيين والسعديين مضافا اليها نكبة الاندلس التي زادت الطين بلة بتأثيرها السلبي ، على نفوس المغاربة ، والايجابي على نفوس الاعداء الاسبان والبرتغاليين ، مما شجع القوى الصليبية الاوروبية ان تنتهزها فرصة سانحة فتدفع بالبرتغال الى اكتساح مدن المغرب وثغوره الشاطئية الشمالية والغربية فتسقط تباعا فى يدها .

لولا لطف الله وسلامه وقد كتب للاسلام ان يستمر في هذه الديار فألهم المجاهدين الابرار من الشعب المغربي امتشاق السلاح والدفاع عن حوزة الدين والوطن والحريم ، لتكررت نكبة الاندلس وانتهى أمر الاسلام بالمغرب ... واحسبني ــ مع ذلك صادقا اذا قلت : انه ما كان لينهض هذا الدفاع ويستمر في انتظام لولا وجود البقية الباقية من النهضة العلمية الروحية المباركة التي كان يحمل لواءها العلماء العاملون من فقهاء الشريعة الاسلامية أمثال ابن غازي ونخبة من المتصوفة أولياء الله الصالحين ، عرفوا العامة بفضائل الجهاد ونتائجه وثوابه العظيم ، بتعليمهم ووعظهم وارشادهم فى

---

(1) الاستقصا ج : 5 ، ص : 82 .

كل حلقة درس ، وفي كل محفل ، وعلى كل منبر وخصوصا في خطب الجمع والاعياد والمواسم .

نعم ، كان للعلماء في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ المغرب النضالي دور خطير وبارز لانهم حقا كانوا علماء عاملين يستشعرون مسؤوليتهم ازاء دينهم ووطنهم ومواطنيهم ، يتنافسون في تقدم الجموع الى ميدان المعارك وقلاع الحراسة في الرباطات المشرفة على الثغور ، ولسان حالهم يردد مع المجاهد الانصاري قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل غزوة بدر الكبرى : (يا رسول الله لا نقول لك كما قال بنو اسرائيل لموسى ، « اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون » ، ولكننا نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون) ، فعملوا بذلك حدا لزحف جيوش الاعداء والتوغل الى الداخل حتى أتى نصر الله المرتقب الذي كان مستورا في كتاب غيبه في معركة وادي المخازن المباركة الفاصلة ... فرجع به الى جسم المغرب طاقته الدفاعية التي فقد كثيرا من مقوماتها في هذه المرحلة، ليستأنف المسير عالي الراس من جديد مؤديا رسالته الاسلامية الكبرى في هذا الجناح الغربي الواسع الحساس من أرض الاسلام والعروبة. هنا ، ونحن بين يدي الموضوع أرى لزاما ومن الاعتراف بالواجب ان اذكر اسماء بعض المجاهدين المخلصين الخالدين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم وراحتهم لله في هذه المرحلة ، كما أرى من الانصاف ان أذكر للتمييز الذين سخروا علمهم وذكاءهم في سبيل الشيطان ففتنوا اخوانهم في الاسلام والدم والوطن وحاربوهم لشهوة الانانية والحكم والظهور ، فكانوا بعملهم عونا للاعداء .

ــ يمثل الصنف الاول نخبة صالحة من علمائنا المجاهدين الابرار كـ الشيخ الامام ابن غازي (841 ــ 919 هـ) والشيخ ابي عبد الله محمد ابن يحيى البهلولي (المتوفى في العشرة الثالثة من القرن العاشر) الذي كان له شغف ورغبة كبيران بالجهاد ، وألفه واعتاده اخبر في اخريات عمره ان السلطان أبا العباس احمد بن محمد الوطاسي عقد صلحا مع نصارى البرتغال وسلطانهم ، فاغتم لذلك وحزن حزنا عظيما وآلى على نفسه أن يقطع صلته بالسلطان وان لا يأخذ منه منحة كان خصصها له أبوه حتى لقي ربه (2) . وكالشيخ ابي محمد عبد الله الغزواني (ت 935 هـ) الذي

(2) الاستقصا ج : 4 ص : 149 .

كان اماما مجاهدا في بلاد الهبط ، التف حوله الناس للجهاد والدفاع عن الوطن فبقي فيهم كذلك حتي اخذ الى فاس كما تاتي قصته مع ابن غازي الامـــــام .

ــــ ويمثل الصنف الثاني شرذمة من اذكياء الفرور يعملون ضـــد مصلحة الدين والوطن ابتلى بهم المغرب في تلك المرحلة ــ وكان ولا زال يبتلى بهم في كل فترة من فترات تاريخه ــ من ادعياء الصلاح والولايـــة الذين يتخذون الدين مطية للوصول الى اغراضهم وشهواتهـــم ، كالثائـــر الفتان عمرو بن سليمان السياف الشيظمي المغيطي ، المشهور بالسياف والمريدي ، الذي ابتدأ ظهور أمره ببلاد السوس مستغلا لتخدير عقـــول الناس وكسب مودتهم وعطفهم كونه تلميذا ومريدا للولي الصالح : (الشيخ ابي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي صاحب دلائل الخيرات . . . كان يتردد اليه ايام حياته وياتيه بألواح فيها كلام كثير منسوب الى الخضـــر عليه السلام . . . فلا يقول له في ذلك شيئا . . . ثم لما مـــات الشيـــخ ــ رحمه الله ــ سنة 870 هـ ، ثار السياف مظهرا الطلب بثـــأر الشيـــخ والانتقام من الذين سموه من فقهاء عصره فتتبعهم حتى قتلهم ثم صار يدعو الناس الى اقامة الصلاة ويقاتلهم عليها فانتصر عليهم وشاع ذكره وتمكن ناموسه ، ثم تجاوز ذلك الى ان صار يدعو الناس الى نفسه ويقتل المنكرين عليه وعلى شيخه واصحابه .

ثم جعل يتفوه بالمغيبات ويزعم انه مأذون وربما ادعى النبوة ، ولاجل ان يلهب حماس الناس ابتدع خطة شيطانية غريبة (اخـــرج شلـــو (*) الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت (**) وصار يقدمه بين يديه في حروبه . . . وهكذا استمرت فتنته في الناس عشرين سنة) (3) .

ومما تجدر ملاحظته هنا ان علماءنا العاملين المجاهديـــن في تلـــك الفترة لم يكونوا غافلين عن استنكار وتهجين افعال مثل عمر السيـــاف : كأبي عبد الله القوري شيخ ابن غـــازي (ت 872 هـ) والشيـــخ زروق (ت 899 هـ) بل كانوا لها بفتاويهم بالمرصاد ، ولكن مع ذلك لا حياة لمن تنادي ، فنجحت دعوة السياف ودعوة الآخرين مدة طويلة ووجدت آذانـــا مصغية وانقيادا أعمى لدى الدهماء . . .

(*) واحد شلاء : عضو من الانسان بعد موته ، والمقصود به هنا جسده .
(**) صنـدوق من الخشب يتخـذ للميـت .
(3) الاستقصـــا ج : 4 ص : 122 .

في هذه الاضطرابات والاحداث الخطيرة التي كان المغرب مسرحا لها في هذه المرحلة بين بني مرين وبني وطاس ، ثم بين الوطاسيين والسعديين تخللها الحدث الاكبر وهو جلاء المسلمين عن الاندلس ، وما سبقه وتبعه من غارات الصليبيين على ثغور المغرب ... عاش ابن غازي الذي نستعرض أخبارا عن حياته وجهاده في ميداني العلم والعمل صبيا وشابا وكهلا وشيخا ..

اسم ابن غازي ونسبه :

أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني نسبة لابي عثمان قبيلة من كتامة على ما ذكره ابن غازي نفسه في الروض الهتون استنادا الى ابن خلدون والذي في ترجمة الشيخ عبد الله بن عبد الرزاق العثماني في نشر المثاني ان نسبتهم الى العثامنة بطن من مختار حوز مكناسة الزيتون (4) المكناسي المولد والمنشأ ، الفاسي الاستيطان والوفاة .

مولده ونشاته :

ولد أبو عبد الله محمد بن غازي بمكناس سنة 841 هجرية حسب قول الشيخ المنجور في فهرسته خلافا لما عند ابن القاضي في درة الحجال (5) وجدوة الاقتباس (6) من انها كانت سنة 858 هـ ، اشتبه عليه الامر بما رآه في الروض الهتون من تاريخ رحلته من مكناس الى فاس لطلب العلم في العبارة الآتية : (نشأت بهذه المدينة (مكناس) كما نشأ بها اسلافي وقرات بها . ثم ارتحلت الى مدينة فاس في طلب العلم أظنه سنة 858 (7) ...) أو لعله وقع لابن القاضي تحريف في نسخته من الروض كما في السلوة (8) .

---

(4) في السلوة ص : 73 بنسبة الى بني عثمان قبيل من كتامة الهبط ، وقال المؤرخ للملكة عبد الوهاب بمنصور في تعليقه على الروض الهتون ، نسبة لبني عثمان احد بطون قبيلة كتامة الريفية ص : ا ، وقال العلامة كنون في كتابه ذكريات مشاهير رجال المغرب موفقا بين القولين السابقين : ولا يبعد ان يكون أصلهم من كتامة ، واعتبر المترجم الاصل فقط .

(5) ج : 1 ص : 224 .

(6) ج : 1 ص : 203 ـ طبعة حجرية .

(7) الجزء 1 ص : 75 .

(8) ص : 73 طبعة حجرية .

دراسته وسبب نفيه من مكنـــاس :

من العبارة السالفة استفدنا ان دراسته كانت اولا بمكناس كعـــادة قومه ، ثم لما تقدم فيها واحس من نفسه القدرة على المتابعـــة والزيادة انتقل الى فاس لكثرة شيوخ العلم بها ، لكونها كانت عاصمة وكعبة طـــلاب العلم ليس للمغرب فحسب ، بل لاقطار المغرب العربي في شمال افريقيا كلهـــــا ...

وفي هذا الصدد قال يصف دراسته وتردده بين فاس ومكنـــاس : (فأقمت بها ما شاء الله تعالى ولقيت من الاشياخ بالمدينتين (العدوتين) جماعة ذكرت مشاهيرهم في الفهرسة التي سميتها بـ (التعلـــل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد) ثم عـــدت الى مدينة مكنـــاسة ، فأقمت بها بين أهلي وعشيرتي زمانا ، ثم انتقلت الى مدينة فاس كلأها الله تعالى فاستوطنتها .

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

يشير في تمثله بهذا البيت الى السبب الخفي الـــذي مـــا أراد ان يظهره والحامل لامير مكناس وواليها يومئذ محمد بن ابي زكرياء يحيى بن عمر الوطاسي الملقب بالحلو على نفيه ، وهذه الاشاره او النصيحة من ابن غازي عمل بها أغلب مترجميه الذين كتب لي أن أقف عند تراجمهم له ، فما أعاروا للبحث عن سبب نفيه ادنى اهتمام . بل اكتفوا بالاشارة الى الحادث وتنحوا الى سرد عبارات المدح والاسجاع التي لا تفيد حقيقة البحث في شيء ، وجزى الله علامتنا المعاصر السيد عبد الله كنون الذي أحس هذا النقص ولفت اليه الانظار في كتابه : (ذكريات مشاهير رجال المغـــرب) الجزء 12 المخصص للامام ابن غازي .

« وقد افادنا في هذه الكلمة القصيرة بعدة أشياء : أولها بيان نسبه. وثانيها نشأته وطلب العلم ببلدة مكناسة ، ثم رحلته الى فاس بصدد اكمال دراسته . ثالثها عودته الى مكناس واستقراره بها بين أهله وعشيرته مدة من الزمن ، وهذه كلها امور طبيعية لا تلفت نظر الباحث كما يلفته رابع تلك الاشياء وهو انتقاله بآخرة الى فاس متوطنا لها من غير موجب لذلك ، الا

هذا البيت من الشعر الذي انشده محاولا صرف نظرنا عن البحث في هذا الامر فكأنه أغرانا به ووكلنا بالكشف عن سره .

والواقع أن مترجميه الذين قرأناهم قد اقتنعوا بهذه الاشارة فلم يعرجوا عن ذكر السبب في انتقاله الى فاس ولم يسألوا عن الخبر اليقين في ذلك ، بل ظنوا خيرا ـ كما امرهم ـ وقالوا هذه مؤنة كفيت . . .

وعلى كل حال فان ابن غازي بعد ان كان استقر ببلده مكناس ازعج عنها الى فاس ومترجموه مع اعترافهم بامامته في العلم وورعه التام بحيث لا يصدر منه ما يوجب اخراجه من بلده شرعا لم يعيروا هذه المسألة ادنى اهتمام . فلننفض يدنا منهم ولننظر ما تقوله المظان الاخرى عن هذه القضية (9) .

قال المؤرخ ابن القاضي في درة الحجال .. في ترجمة الاستاذ محمد التدغي : وحدثني أن ابن غازي لما نفاه محمد بن ابي زكرياء يحيى ابن عمر الوطاسي الملقب بالحلو عن مكناسة لقيه بواب مكناسة وهو خارج منها قاصدا المشرق ـ اعني كان في ظنه ذلك ـ ثم حبسه اهل فاس عندهم فقال له البواب يوصيه : يا محمد عليك بالقراءة فمن بركتها بلغت هذا المنصب وهذه الخطة يعني خطة الجلوس لحراسة الابواب ، فكان ابن غازي يسلي نفسه بعد ذلك بقوله : وكان أمير فاس يومئذ محمد الشيخ بن ابي زكرياء (10) .

واذا قابلنا هذه الحكاية الواضحة الدلالة في اخراج ابن غازي ونفيه عن بلده مكناس التي كان عازما على الاستقرار بها الى النهاية مع هذا الخبر الذي أورده الناصري في الاستقصا : (وفي 891 هـ استدعى السلطان محمد الشيخ الامام ابا عبد الله ابن غازي من مكناسة الى فاس فولي الخطابة اولا بالمسجد الجامع من فاس الجديد ثم ولي الامامة والخطابة ثانيا بمسجد القرويين من فاس وصار شيخ الجماعة بها واستوطنها الى ان مات رحمه الله) (11) ، نجد نوعا من التناقض على ان نفيه كان لامور سياسية ، لان الاخوين السلطان بفاس والامير بمكناس كانا متفقين ـ بلا شك ـ على سياسة واحدة ، فمن المستحيل ان يكون الواحد منهما

(9) ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 6 .
(10) درة الحجال ج : 1 ص : 240 .
(11) الجزء 4 ص : 124 .

ينفي ابن غازي والآخر يستدعيه ويرحب به ويستقبله ، مما يحمل على الظن ان النفي كان لامور شخصية بين ابن غازي والامير ، او بين ابن غازي وشخصيات أخرى علمية مسؤولة في الحكومة بينها وبين الامير اسباب وثيقة من الاتصال : كالقضاة ورؤساء الشرطة ومن اليهم من الجاحدين لفضل ابن غازي الذي نجده يبدي فلتات من التعرض بهم بين حين ، وآخر كقوله :

طلقت مكناسة ثلاثا   والشرع يأبى الرجوع فيه
ليست بدار سوى لقاض   أو عامل الجور او سفيه

وقوله :

اقمت بمكناسة مدة   أعلم أبناءها ما الكلام
فلما توهمه بعضهم   علي به بخلوا والسلام

فان كانت هذه الابيات تتضمن بعض المصطلحات الفقهية والنحوية المشهورة في الظاهر ، فان مغزاها وأبعادها الحقيقية هي التعبير عما كان يشعر به ابن غازي من المضايقات في الجو الاجتماعي والسياسي بمكناس .

ولعل ابن غازي لم يكن وحده اول ضحية لهذا الجو الخانق ، بل سبق ولحق ان ذاق مرارته علماء اجلة مثله ، وها هو ذا يذكر ذلك ايضا ولا يبوح بالسبب تقية او صبرا وعلوا بهمته ان تنحط الى درجة التشكي من مخلوق لمخلوق .

وكان هذان الشخصيان ــ أحمد بن سعيد الحباك ، وابو عبد الله القوري المكناسيان ــ قد ارتحلا من مكناسة الى فاس ، وسبب ارتحالهما مشهور عند الناس ، فلنقبض عنه العنان والله المستعان (12) .

ولا أترك الفرصة تمر دون ان أورد هنا فقرة يقصها ابن غازي الواعي التقي تطلعنا على ظاهرة من ظواهر التملق التي كانت سائدة في الوسط الاجتماعي يومئذ ، وأظنها سارية المفعول في البلدان المتأخرة سياسيا

---

(12) ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 11 .

وتربويا وثقافيا في كل زمان ومكان ، قال وهو يترجـم للمشهوريـن من علماء مكناس في كتابه الروض :

(واما أبو محمد بن سعيد بن محمد المكلاني فقد كان شيخنا الفقيه الحافظ أبو عبد الله القوري يحكي ان السلطان أبا عنان استقدمـه مـن مكناسة فقدم عليه ومعه اتباعه وأعوانه فلما بلغ باب المشور بالبلد الجديد تركهم مع بلغته ودخل على السلطان فعزله من خطة القضاء بسبب عـدم مبالاته في تنفيذ الحق فخرج فوجدهم فروا عن بلفته ثم بدا للسلطان من وقته فاسترجعه واستحلفه واستعطفه واعاده لخطته ، فلما خرج وجدهم دائرين بالبلغة) ، وهذا شأن الناس كما قيل :

الناس أعوان من واتته دولتـه   وهم عليه اذا خانته أعوان (13)

علمـه واجتهـاده :

أجمع كل الذين ترجموا لابن غازي على تبحره وتفوقه في العلوم التي كانت معروفة متداولة بالمغرب ، في عصره ، ولم يشذ عنهم احد حتـى العلماء المنتسبين أصالة الى فاس الذين لا يكادون يسلمـون بالعلـم والمعرفة لاحد سواهم ــ ولهم الحق في ذلك اذ لا حسد الا في اثنيـن احداهما العلم ــ اذا استثنينا نقد الناقد منهم لكتابه : (تكميل التقييـد وتحليل التعقيد) : (اما التكميل فكمل ، واما التحليل فما حلل) (14) .

وصفه أبو العباس أحمد بابا في نيل الابتهاج بأنه شيخ الجماعة بها (فاس) الامام العلامة البحر الحافظ الحجة المحقق الخطيب جامع شتات الفضائل خاتمة علماء المغرب وآخر محققيهم ذو التصانيـف المفيـدة العجيبة ، كما أورد وصف تلميذه له عبد الواحـد الونشريسي بقولـه : (شيخنا الامام العالم الاثير السيد ابو عبد الله كان اماما مقرئا مجـودا صدرا في القراءات متقنا فيها عارفا بوجوهها وعللها طيب النغمة قائما بعلم التفسير والفقه والعربية متقدما فيها ... و ... في الحديث حافظا له

(13) ص : 51 .
(14) السلوة ج : 2 ص : 73 ــ طبعة حجرية .

واقفا على أحوال رجاله وطبقاتهم ضابطا لذلك كله معتنيا به ، ذاكرا للسير والمغازي والتاريخ والادب ، فاق في كله أهل وقته (15) .

وزاد محمد بن جعفر الكتاني صاحب كتاب سلوة الانفاس فوصفه بالاجتهاد والتجديد ، فقال : (ومنهم الشيخ الامام العلامة الهمام شيخ الاسلام والدين وبقية العلماء المجتهدين حصن الملهوفين والطالبين ، وملجأ سائر القراء والراغبين ، السيد الصالح ، والقدوة الناصح ، والمورد الروي ، والمجلس الفسيح البهي الحافظ الراوية المكثار ، والمجدد لما انبهم على كثير من النظار ، خاتمة العلماء وآخر الاعيان والنبلاء شيخ الجماعة) (16) .

وفضلا عن الصفات والفضائل السابقة نعته صاحب شجرة النور الزكية باستجماعه اليها حصال وشروط المربي الناجح الفاضل ، والاجتماعي الامام القدوة المضطلع بمسؤولية التهذيب والارشاد كاملة ، المدرك تمام الادراك لخطورة تأدية امانة العلم ورسالة المعرفة :

(.. رحل الناس اليه للاخذ عنه كان عذب المنطق حسن الايراد والتقرير فصيح اللسان عارفا بصناعة التدريس ممتع المجالسة جميل الصحبة سري الهمة حسن الاخلاق عذب الفكاهة معظما عند الخاصة والعامة) (17) .

لهذه العلوم المتنوعة والخصال الحميدة ، جازاه طلاب العلم وباحثو المعارف بلقب الامام وشيخ الجماعة وآخر المحققين المجتهدين ... ووثقوه ، وقبلوا رؤيته ورحلوا الى الاخذ عنه من أقاليم المغرب والاقطار النائية كما أشار الى بعض ذلك الاستاذ محمد بن الحسن الحجوي في كتابه الفكر السامي :

(.. انتهت اليه رواية السنة بافريقيا ، وفهرسته خير دليل على ذلك واجتماع علماء المغرب على الاخذ عنه وتوثيقه وقبول روايته الامام الحافظ المشارك في الفنون العقلية والنقلية ... ورياضي كبير ، وكانت اليه الرحلة في الاقطار الافريقية) (18) .

---

(15) ص : 359 .
(16) ج : 2 ، ص : 73 – طبعة حجرية .
(17) ص : 276 .
(18) ج : 4 ، ص : 100 .

وملخص القول ان جوانب ابن غازي مليئة بالمآثر الحيوية وواسعة لا تحصى ، لانه كان عالما جامعا بذل مجهودا في التحصيل والدراسة ، ثم بذل مجهودا مماثلا في بث هذه المعارف ونشرها ، ولم يقصر ذلك على طلبة العلم الرسميين وحدهم بل خاض معارك عظيمة ضد الجهل وانتشاره في الاوساط الشعبية بوعظه وارشاده (19) وخصوصا في خطبة أيام الجمع .

نقل صاحب السلوة عن تلميذه عبد الواحد الونشريسي ما يعتبر ملخصا عن حياته (انفق ايام حياته في طلب العلم واقرائه والعكوف على تقييده ونشره ، ألف في القراءات والحديث والفقه والعربية والفرائض والحساب والعروض وغير ذلك تآليف نبيلة) (20) .

وظائفه الدينية :

لما كان طبع الامام ابن غازي ومزاجه الزهدي يتنافيان مع الملق السياسي والنفاق الاجتماعي فانه ضرب صفحا عن التعامل في هذا الجانب ، والتجأ الى الميدان الديني الرحب الواسع الذي لا يضيق عادة بأمثاله من النبلاء أصحاب النفوس الكبيرة والهمم العالية ، فبعد ان استكمل دراسته والاخذ عن شيوخ مكناس وفاس في العلوم المختلفة التي كانت متداولة يومئذ بالمغرب استقر بمكناس للعطاء بدوره وتدريس العلم لابناء قومه ، وان كان لم يلق منهم مثوبة حسنة كما تقدمت اشارته لذلك في قوله :

(اقمت بمكناسة مدة ... أعلم أبناءها ما الكلام
فلما توهمه بعضهم ... علي به بخلوا والسلام)

ومما يفهم من هذين البيتين من جهة أخرى ان ابن غازي كان يعلم في بداية أمره ضمن ما يعلم النحو والعربية وعلم التوحيد ، اذ كل منهما يصح ان يطلق عليه الكلام اصطلاحا حسب المعروف لدى المغاربة والمألوف تلقينه في بداية التعليم بمعاهدنا الدينية الاصيلة ...

---

(19) ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ص : 17 .
(20) ج : 2 ، ص : 73 .

أما مهمة تدريسه واقرائه بعد انتقاله الى فاس ، فكانت عامة متنوعة شاملة كما أوردنا في فقرات العنوان السابق (علمه واجتهاده) ، ومنهـــا فقرة عن تلميذه الونشريسي هذه : (... كان اماما مقرئا مجودا صدرا فى القراءات متقنا فيها عارفا بوجوهها وعللها ، طيب النغمة ، قائمـــا بعلـــم التفسير والفقه والعربية ، متقدما فيها ، عارفا بوجوهها ، ومتقدمـــا في الحديث ، حافظا له ، واقفا على أحواله ورجاله وطبقاتهم ، ضابطا لذلـــك كله .. ذاكرا للسير والمغازي والتاريخ والاداب ، فاق في كلـــه اهـــل وقتـــــه) (21) .

وبالاضافة الى التدريس ولي الخطابة بمكناسة ثم بالمدينة البيضـــاء من فاس ثم ولي آخرا الخطابة والامامة بجامع القرويين ... ولم يكن في عصره أخطب منه ، وكان يسمع في كل شهر رمضان صحيح البخاري ، وله عليه تقييد نبيل ، وتخرج بين يديه عامة طلبة فاس وغيرها ... (22) .

هذا وقد آن الاوان ان نتعرف على الشيوخ الكبار الذين تلقى عنهم ابن غازي علمه الواسع المتنوع في آخر هذه الفترة من فتـــرات العهـــد المرينـــي العلمي الزاهر :

شيـــوخـــــــه :

اخذ ابن غازي العلم عن كثير من الشيوخ في مكناس وفي فاس ، من الصعب ان أذكرهم جميعا رغم البحث وطول المعاناة .. لان مترجميـــه يكتفون بذكر القليل منهم عادة والاحالة عن الباقي الكثيـــر على فهـــرسة المؤلف المسماة : (التعلل برسم الاسناد بعد انتقال اهل المنزل والناد) التي عرف فيها بشيوخه ومقروءاته والتي توجد منها نسخة ب ... (محل غير معروف) (=) كما أشار المؤرخ عبد الوهاب بن منصور في تعليقه على الـــروض الهتـــون (23) .

لذا اكتفى بايراد اسماء وتراجم مختصرة لمن عثرت عليه منهـــم في بعض كتب المعاصرين ، او ما أشار اليه المؤلف نفسه في الروض ، وأول أولئك الشيوخ وأسبقهم والدته وهي :

(=) اخبرت اخيرا ان فهرسة الامام ابن غازي توجد تحت الطبع ...
(21) نيل الابتهاج ، ص : 379 ــ طبعة حجرية .
(22) السلـوة ، ج : 2 ص : 73 .
(23) هـــــامش ص : 68 .

1 ـ رحمة بنت الجنان ، التي يرجع اليها الفضل الاكبر في تربية ابن غازي في طفولته ونشأته البيتية ، وهي من اسرة آل الجنان المشهورة بمكناس ، ولعل مترجميه غفلوا عن ذكرها رغم دورها الكبير في تعليمه وتربيته ـ كما فعلوا في السكوت عن سبب نفيه ، ورغم ذكر ابن غازي لها وتعريفه بعملها وفضلها ، ولكن لله در علامتنا البحاثة في هذا العصر السيد عبد الله كنون الذي نبه اليها ، وجعلها في مقدمة شيوخه وهي جديرة بذلك ، لانه قلما رأيت رجلا عظيما له شأن يذكر ولم يكن للمراة في حياته تأثير ملموس لا سيما الام التي في حجرها يتلقى اول درس في الحياة ، فان كانت امراة فاضلة مهذبة طبعت ولدها على غرار نفسها فنشأ فاضلا مهذبا والا فأول ما يوتي منه الولد الام الجاهلة السيئة الخلق ، ولقد أثرت هذه السيدة تأثيرا بليغا بقي يذكره لها مدى الحياة ، ولنستمع اليه يسجل لها هذا الفضل ويعتبرها أول شيوخه ، وذلك عند كلامه على الشيخ الحاج ابي عبد الله محمد بن عزوز الصنهاجي من علماء مكناسة الذي رحل الى بلاد المشرق فمات هنالك من حجته الثانية ، فتزوج والد ابن غازي زوجه رحمة المذكورة :

(فهي امي والحاج المذكور والد اخوتي لامي ، وقد كانت امي حفظت منه حديثا كثيرا من الصحاح وكادت ان تحيط حفظا بالادعية الواردة في الصحاح فحفظت منها كثيرا في أيام الصغر ـ فلم اتعب في حفظه بعد الكبر ولله الحمد ، وكانت رحمها الله تعالى ملازمة لدرس القرءان العزيز في المصحف ، وكان علمها كثيرا من تفسير قصصه واخباره ، فنفعتنا بذلك في الصغر غاية برد الله تعالى ضريحها ، وحدثتني عنه بحكايات وفوائد يطول جلبها) (24) .

2 ـ يأتي بعدها اكبر شيوخه قدرا واجلهم خطرا وهو الامام محمد ابن قاسم القوري المكناسي ثم الفاسي ، لازم مجلس درسه اعواما فسمع منه الحديث والتفسير والفقه والعربية والسير والتراجم .

3 ـ أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد بن جماعة الاوربي النيجي الشهير بالصغير (803 ـ 887 هـ) المتوفى بفاس ... لازمه

(24) ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 12 ، الروض ص : 21 .

وقرأ عليه ثلاث ختمات آخرها للقراءة السبع على طريقة الداني ... وأخذ عنه بحثا وتدقيقا لامية الافعال وبعض كتاب سيبويه وايضاح ابي علـــي ، والتسهيل والمغنى والبداية والهداية للغزالي وغيرها وروى عنه بعـــض المصنفات في القراءات والفقه والحديث باسانيده الى اربابها .

4 ــ ابو الحسن علي بن منون الحسني المكناسي ختم عليه ختمات كثيرة من القرءان العزيز وفقه الفرائض والوثائق ... واستفاد منه كثيرا (790 ــ 854 هـ) (25) .

5 ــ القاضي ابو محمد عبد الله بن عبد الواحد الورياغلي ، جالسه وذاكره كثيرا واستفاد منه في الفقه واصوله واصول الدين واجازه متلفظا وخاطا ــ كما قال ــ جميع ما حمله عن شيوخه ، وكان ذلـــك في ربيـــع الثاني من عـــام 886 .

6 ــ الشيخ النظار ابو العباس احمد بن عمر المزجلدي (ت بفاس 864 هـ) كان يحيط علما بالمدونـــة .

7 ــ الحافظ المكثر الخطيب ابو علي الحسن بن منديل المغيلـــي (ت بفاس 863 هـ) لازم مجلسه بجامع القرويين مدة سمع بها رسالة ابي محمد ، قال وسألته واستفدت منـــه .

8 ــ ابو زيد عبد الرحمن بن احمد بن ابي القـــاسم القرقونـــي (ت 864 هـ) .

9 ــ ابو زيد عبد الرحمن المجدولي .. وكان مبرزا في علم المعقول وعنه كان يؤخـــذ بفـــاس .

10 ــ ابو زيد عبد الرحمن الكاواني دفين مكناسة قرأ عليه اصول الدين واصول الفقه والعربية والفقه .

11 ــ ابو العباس احمد بن سعيد الحباك المكناسي قرأ عليه العربية تحقيقا وفقه البيـــوع .

---

(25) الـــروض الهتـــون ص : 54 .

12 ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن جابر الغساني ... اخذ عنه المصافحة المروية عن الخضر .

13 ، 14 ـ ابو الحسن الانفاسي ، وابو سالم ابراهيم المعروف بالحاج في شيوخ فاس المهرة وكان من شيوخ شيخه الصغير المذكور ، قال وقد شاركته في لقاء هذين الاخيرين ـ يعنيهما ـ وحضرت مجلسيهما.

15 ـ ابو عبد الله محمد بن يحيى البادسي ، قال : جالسته كثيرا وصاحبته في السفر مرارا واجتمعت معه ومع غيره على قراءة جمع الجوامع لابن السبكي تفقها وبحثا وعلى المذاكرة في العلم ، ثم ذكر انه اجازه فيما يرويه عن شيخه ... عبد الرحمن ابن مخلوف الثعالبي ...

16 ـ أبو الفرج محمد بن محمد بن موسى الطنجي قال : جالسته كثيرا للمذاكرة واجتمعنا بجامع القرويين ... على قراءة صحيح البخاري حتى ختمناه تحقيقا وتدقيقا وبحثا ...

17 ـ ابو عبد الله بن ابي سعيد السلوي شيخ شيخه الطنجي قال: ادركته وجالسته ولكن ما كتب لي ان أروي عنه الا بواسطة هذا الشيخ وبواسطة شيخنا ابي عبد الله الصغير .

18 ـ ابو عبد الله محمد بن ابي القاسم الشهير بالسراج يروي عنه بالاجازة العامة عام 876 عن أبيه عن جده مسند فاس أبي زكريا ...

19 ـ الشيخ الرحالة ابو محمد عبد القادر البكري المقدسي ، ورد على المغرب في عام 880 هـ ، وتبادل هو واياه الاجازات في العلوم وانتفع الواحد منهما بما عند الآخر .

فهؤلاء هم شيوخ ابن غازي الذين لقيهم واخذ عنهم بالسماع فقط او بالسماع والاجازة ، ولقد اعتمدهم وضمن تراجمهم وما اخذ عن كل منهم في فهرسته ..

واجاز له مع ذلك الحافظان المصريان ابو عمرو عثمان الديمي وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي عام 885 هـ بواسطة صديقه

الشيخ زروق . كما أجاز له المحدث ابو عبد الله محمد بن محمد بـــن مرزوق الكفيف التلمساني بالاجازة العامة التي بعثها اليه متلفظا . . . لتعذر بصره بالكتابـــــة .

والملاحظ أن اعتماده كان على شيوخ الاخذ والسماع لا على شيوخ الاجازة والاذن ، ولعل ذلك بعض ما دعاه الى تسمية فهرسته بـ (التعلـــل برسوم الاسناد بعد ذهاب اهل المنزل والناد) (26) .

تــــلاميـــــــــذه :

بعد ان تبوأ ابن غازي مرتبة عالية في تحصيل العلوم المختلفة حتى ادرك فيها درجة الاجتهاد ـ كما تقدم ـ وطار صيته في الآفاق ، فلم يقتصر الاخذ عنه على أهل المغرب خاصة ، بل قصده الناس من كافة انحاء افريقيا الشمالية ، فورد عليه كثير من علماء تلمسان وغيرها من مدن المغربيـــن : (الاوسط والادنى) ، ولقد قال صادقا في وصف تفوقه العلمـــي أحـــد عـارفيـــــه :

تكلـــم في الحقيقـــة والمجـــــاز
فما في الارض مثلك يا ابـــن غـــازي

وقول أبي عبد الملك الكفيـــــــف :

حبر تثبت والانصـــاف شميتـــــه
اكرم به طاب من خلق ومن خلـــــق
اتى به الدهر فردا لا نظيـــر لـــــه
مثل البخاري لما جـــاء بالعتقــــي

وممن أخذوا عنه من كبار العلماء أبو عبد الله بن العباس الصغيـــر التلمساني وأبو عبد الله محمد بن علي الشريف الحسني التلمساني شارح الشفا ، أخذ سنة 913 هـ كما صرح بذلك صدر شرحه للشفا ، وأبو عبد

(26) نقلت أكثر هؤلاء الشيوخ عن اتحاف اعلام الناس جـ : 4 ص : 2 ـ ذكريات مشاهير رجـــال المغـــرب ص : 14 .

الله محمد بن شقرون بن أبي جمعة المغراوي الوهراني ، وابو العباس أحمد الدقون من اهل المغرب ، والمفتي علي بن هارون وعبد الواحد الونشريسي، وأحمد بابا التنبكتي ، وابو عبد الله محمد بن عدة الاندلسي المتوفى سنة 975 هـ ، وغيرهم كثيــــر (27) .

قال صاحب الاتحاف : (وقد وقفت على اجازته لولديه ، احمـــد ومحمد .والونشريسي وابن هارون والاخوة : محمد وعبد الرحمن واحمـــد أولاد محمد بن ابراهيم الدكالي ، ومحمد بن عبد الواحد الغزال بخطه على ظهر فهرسته التي بخطه ... فيكون هؤلاء الذين اجاز لهم ممن لم يذكروا قبل من جملة من اخـــذوا عنـــه .

جهـــــاده ووفاتـــــه :

تقدم ان ذكرنا ان ابن غازي لم يكن من أولئك العلماء الذيـــن يجرون وراء الدنيا وزخرفها ، لان توجيهه في البيت من قبل امه الصالحة الزاهدة العالمة أثر فيه من أول الامر ، ثم بنى عليه العلماء العاملون من شيوخـــه الذين تلقى عنهم التربية والعلم فتنحى عن الدنيا واتجه الى مواطن العبادة وتربية العباد ضاربا في كل ذلك أروع الامثال ، فكان بمجرد ان أتم دراسته وحصل على العلم الغزير المتنوع مدرسا وخطيبا .. ولكن دروسه وخطبهلم تكن لينة رخوة عادية من نوع (الروتين) المعتاد بل كانت حماسية نشيطة شديدة التأثير ، لان زمانه ومكانه كانا يستدعيان منه ذلك ، فالبلاد متعرضة للغزو الاجنبي تسقط مدنه وثغوره الشمالية والغربية باستمرار بيد الاعداء وفوات الاندلس الغراء ترك حملا ثقيلا على النفوس يستحيـــل ان ينسى (والمؤمن لا يلذع من جحر مرتين) فكيف يمكن الركون الى الدعة والراحة ولا منجاة من الغزو الصليبي المنتشر والمستمر الا بالاعتماد على النفس وتعبئة شعور ابناء الشعب على الصبر والمثابرة .

فكانني بابن غازي الامام العالم البطل يتوسط الناس ويصيـــح في جموعهم بمثل هذه الآية الكريمة : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفحلون) سواء في دروسه امام طلبته او امـــام

(27) اتحاف اعلام الناس ج : 4 ص : 2 ــ ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 18 .

الجموع الغفيرة من المصلين المؤمنين من فوق منبر القرويين ، او في كل حفل ومجمع آخر تتطلبه ظروف الجهاد المقدس .

وهو اذ يدعو الى الاعمال الصالحة عموما والى الجهاد خصوصا كان يضرب المثل على ذلك من نفسه ، يديم الخروج الى الحراسة والجهاد في الرباطات والثغور ... قال تلميذه عبد الواحد الونشريسي بعد ان وصف كيفية تدريسه وحسن معاشرته ومن أخذ عنه العلم من عامة طلبة فاس ...

وبالجملة فهو آخر المقرئين وخاتمة المحققين ولم يزل باذل النصيحة للمسلمين محرضا لهم في خطبه ومجالس اقرائه على الجهاد والاعتناء بأموره وحضر فيه بنفسه في مواقف عديدة ورابط مرات كثيرة (28) .

وكان رحمه الله يبتغي بخروجه الى الجهاد الاجر والثواب وان يكون قدوة حسنة لمواطينه فيه ، شأنه في ذلك شأن العلماء العاملين المحتسبين من السلف الصالح واقربهم اليه واحراهم ان يكون ... ترسم خطاه في هذا العمل شيخه أبو محمد الورياغلي الذي كان من كبار فقهاء عصره ومن حفاظ مذهب مالك حتى كانوا يقيسونه في علمه بالمازري ولا يعدون به طبقته ، فقد كان من عادته ان يشتغل بالتدريس في فصلي الشتاء والربيع، وفي المصيف والخريف يرابط في الثغور .. فلا شك ان ابن غازي كان يقتدي به في ذلك وان لم يوقت لخروجه وقتا معينا (29) فجزاه الله عن نفسه وعن مواطنيه وعن الاسلام خير ما يجازى به المجاهدون المتقون الصابرون .

وفي حركة من حركاته الجهادية الى الثغور الشمالية الغربية التي كان الف الذهاب اليها ، خرج هذه المرة وهو كبير السن يقرب من الثمانين بمعية السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطاسي الملقب بالبرتغالي (*) فبينما هو هنالك بنواحي قصر كتامة من بلاد الهبط الم به المرض فرجع محمولا الى مقره بفاس ، ولم يمكث الا أياما فمات شهيدا حسب نيته رحمه الله كما يحكي هذا المشهد ابن عسكر في دوحة الناشر : (حدثني

---

(28) السلوة ج: : 2 ص : 73 ــ طبعة حجرية .
(29) ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 20 .
(*) عرف بذلك لانه بقي اسيرا عند البرتغال باصيلا سبع سنين ثم افتكه والده .

بعض الفضلاء انه حرك مع السلطان ابي عبد الله محمد ـ البرتغالي بن محمد ـ الشيخ الوطاسي للاغارة على الكفرة بأصيلا يومئذ فاعتراه مرض من أيامه ، وكان السلطان اعتقل الشيخ الولي سيدي ابا محمد الغزواني في تلك السفرة بموضع تجنوت وأمر باشخاصه الى فاس فرجع اليها في سلسلة ، وكان الشيخ ابن غازي حملوه مريضا الى منزله بفاس اشتد به الحال فأمر اصحابه ان يريحوا به هناك فبينما هو كذلك اذ مر بهم الشيخ سيدي ابو محمد الغزواني في سلسلة مع الستائرية فلما رآه سأل من الستائرية ان يميلوا به اليه حتى يعوده ففعلوا فلما وقف عليه طلب الشيخ ابن غازي منه الدعاء فدعا له وانصرف فلما غاب عنه قال ابن غازي لاصحابه احفظوا وصيتي فاني راحل عنكم الى الله تعالى بلا شك ، ان الله وعدني ان لا يقبض روحي حتى يريني وليا من اوليائه وقد ارانيه اياه الساعة فدلني ذلك على انقضاء الاجل فحملوه من ساعتهم الى منزله فكان ذلك آخر المهد به) (30) .

وكانت وفاته عشية يوم الاربعاء 9 جمادى الاولى سنة 919 هـ عن 78 عاما ودفن من الغد يوم الخميس في محفل رهيب حضره السلطان فمن دونه من الناس ، بأول الكفادين مما يلي الروضة المعروفة بروضة ابي مدين ... وكان قبره مهملا لا بناء عليه ثم وضع نقش عند راسه في صفر عام 1045 ليعلم بأنه قبره وفيه :

فهذا ضريح الامام الهمام   سيدي ابن غازي سراج النظام

ثم بعد ذلك انتدب بعض الفضلاء لقبره فبنى عليه بناء جيدا دائرا بالقبر وكتب عليه : (خمسة أبيات من الشعر تذكر بفضله وزهده وتقواه). ثم انهدم هذا البناء وجدد عليه بناء آخر في هذا العصر (عصر صاحب السلوة) وقد أسرع اليه الخراب وعلاه السقوط والذهاب والى الله سبحانه المرجع والمآب (31) .

---

(30) ص : 36 ـ طبعة حجرية .

(31) السلوة ج : 2 ص : 73 ـ اتحاف اعلام الناس ج : 4 ص : 2 ، الفكر السامي ج : 4 ، ص : 100 .

وكان سكناه ــ رحمه الله ــ بعد انتقاله اليها بحومة البليدة (32) :

وخلف رحمه الله ولده محمدا المدعو غازي ولي امامة القرويين والخطابة بها بعد والده ، وكان فقيها بارعا في النحو ، أستاذا ، ام بجامع القرويين أزيد من عشرين سنة ... أخذ عن أبيه وغيره ، وأخذ عنه هو خلائق ، وتوفي سنة 943 هـ (33) ولكن مع الاسف لم يكن غازي مثل أبيه شجاعا في الحرب ، أورد ابن عسكر في الدوحة حكاية طريفة وهي : « ان المجاهد المتصوف محمد بن يحيى البهلولي المتوفى في العشرة الثالثة من القرن العاشر غزا مرة الى الثغور الهبطية وقدم منها مع أصحابه فوجد زوجته بنت الشيخ الولي ابي زكرياء يحيى بن بكار قد قضى نحبها وصلى عليها الناس بجامع القرويين وامامهم الشيخ غازي بن الشيخ ابي عبد الله محمد ابن غازي ، فوصل الشيخ ابو عبد الله ووجد جنازتها على شفير القبر والناس يريدون مواراتها فقال لهم مهلا وتقدم واعاد الصلاة عليها مع أصحابه فتقدم الناس اليه بالنكير في تكرير الصلاة على الجنازة بالجماعة مرتين فقال لهم على البديهة : صلاتكم الاولى عليها فاسدة لكونها بغير امام فقالوا كيف ذلك ... ؟ فقال : اذ من شروط الامام الذكورية وهي مفقودة في صاحبكم لان من لم يتقلد سيفا قط في سبيل الله ولم يضرب به ولا يعرف الحرب كما كان نبينا عليه الصلاة والسلام ولم يتصف بالسيرة النبوية فكيف يعد اماما ذكرا ، بل امامكم والله من جملة النساء » (34) .

ان دلت هذه الحادثة على شيء ، فانما تدل على رسالة المسؤولية الجسيمة التي كان العلماء ــ ولا يزالون ــ مطوقين بها يحاسبون في سبيلها على الشاذة والفاذة وهي امانة شاملة لا يغني القيام بجزء منها عن بقية الاجزاء ، فهذا ، (غازي) ابن الامام المشهور المجاهد المفوار لا يغني عنه أصله ونسبه شيئا بل لا تغني عنه دروسه وامامته وخطبه الوعظية من فوق منبر جامع القرويين شيئا ما دام الواجب يفرض عليه ــ وعلى امثاله ــ أن يكون بالاضافة اليها عمليا يقول ما يفعل ، مقتديا برسول الاسلام عليه الصلاة والسلام الذي كان يقرأ على أصحابه آيات الاوامر في الجهاد

---

(32) السلوة ج : 2 ، ص : 73 .
(33) السلوة ج : 2 ص : 73 ــ طبعة حجرية .
(34) السلوة ص : 26 ــ طبعة حجرية ، ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 22 .

ـ وغيره ـ ويتقدمهم ، ومثله فعل الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم وأمراء المسلمين كصلاح الدين الايوبي وطارق بن زياد ويوسف بن تاشفين ...

واذا تقاعس الامام عن واجب القيادة العملية فانه يكون والنساء سواء ، اذ الفرق بين امراة ورجل القوامة وقد فقدها ، مما جعل الولي الصالح المجاهد الملهم ، البهلولي يحكم بعدم ذكورية (غازي) ومن على شاكلته ، واقسم عليه وهو مبرر القسم محق ، جازاه الله على درسه العملي القيم الذي يبقى عبرة وذكرى لقوم يعقلون مدى الحياة لانه صدر من بطل في ابانه لم تلهه عنه فاجعة ومصيبة الموت الذي حل بزوجته ، لانه كان يرى المصيبة الكبرى والداهية العظمى ما حل بوطن الاسلام الذي يحتضر تحت اقدام الغزاة ، الحال الذي لا يليق بالمغاربة عموما والعلماء منهم على الخصوص ان يكونوا عنه ساهين لاهين ، فضرب لهم أروع المثل بغازي امام جامع القرويين ...

ولعل بعضنا يستهين بهذا الحكم في هذا العصر الذي اختلت فيه موازين الاخلاق ولا يعيره ما يستحق من الاهتمام غير انه لا يلبث ان يؤوب الى رشده ويفرض الحكم عليه نفسه اذا قاسه ـ مثلا ـ بتجريد الدول اليوم بعض أفراد شعبها من الجنسية الوطنية اذا ما قدم اساءة كبيرة الى وطنه ومواطنيه فتضيق به الارض بما رحبت ويعيش مختنقا ... فكيف بمن يجرد من الذكورية وهي صفة قائمة بالشخص ، الا يكون اشد عليه قسوة وابلغ تاثيرا في الوسط الاجتماعي .

مؤلفاته :

ترك ابن غازي مؤلفات كثيرة في مختلف العلوم ، في القراءات والحديث والفقه والعربية والرياضيات والتراجم والتاريخ ، ويلاحظ على كتب ابن غازي عموما ان اغلبها صغير الحجم كبير الفائدة ، كانه اخذ بالمبدأ القائل : (خير الكلام ما قل ودل ..) استفاد الناس منها كثيرا منذ تأليفها وهي ما تزال متداولة .. بعضها مطبوع وأكثرها ما زال مخطوطا . واغلب كتبه هذه غير مستقلة ومبتكرة في الموضوع الذي تعالجه ، بل هي حواش وتعاليق على مصنفات أو شروح سابقة او نظم لنثر ، او تكميل لنقص ، وربما كان قصده الى تأليفها في الغالب هذين الاخيرين .

ومع ذلك فلا تخلو من فوائد كثيرة وزوائد على ما في غيره من كتب ذلك الفن فهي على كل حال ليست (من الكتب المكررة لغيرها) . ومما يلاحظ على أسمائها في البداية ــ وكذلك على عبارات انشائه في التأليف أحيانا انها تتكون من سجعتين غير متكلفتين كانت طابع العصر الذي عاش فيه ولعل تفوقه في هذا السجع غير المتكلف وقدرته عليه هو الذي بواه أن يكون أخطب أهل عصره . وهذا بعض ما استطعنا العثور عليه من مؤلفاته :

1 ــ ارشاد اللبيب الى مقاصد حديث الحبيب :

هذا الكتاب جعله المؤلف ــ رحمه الله ــ حاشية وتعليقا على صحيح الامام البخاري ، اختار فوائده من شراح البخاري الكثيرين كما يفهم من عبارته : (وأودعته نكتا يخف حملها ويسهل ان شاء الله تعالى تناولها ونقلها انتقيتها من شراح كلام الامام البخاري بحسب التيسير) .

وكان الترتيب العام للكتاب كما يلي : بعد ان ذكر مقصوده من مؤلفه والحروف التي يرمز بها الى الشيوخ الذين يستشهد بكلامهم ، وتقريض الامام البخاري بمايستحق في نسبه وطلبه للعلم وفضله ، بدأ يتتبع عناوين كتاب البخاري : (كيف كان بدء الوحي فكتاب الايمان ، الى ان اتم بكتاب التوحيد ثم ختم بقوله (كمل والله تعالى المشكور في منتصف صفر عام 914 هـ) .

يوجد المؤلف مخطوطا بالمكتبة العامة بتطوان ضمن مجموع ، وخطه متوسط الوضوح ، صفحاته من الحجم الكبير ، عددها : 88 صفحة ، تحتوي الواحدة منها على 27 سطرا ، والنسخة لم تكتب بيد المؤلف بدليل التاريخ في آخرها (انتهى والحمد لله .... أواخر جمادى عام 1293 هـ) .

وكيفية شرحه وتعليقه تظهر من هذه النماذج التي نأخذها من كتاب (كيف كان بدء الوحي) وهي : (قوله اقرأ باسم ربك . ح اى لا تقرأ بقوتك ولا بمعرفتك ولكن بحول ربك واعانته . قوله لقد خشيت على نفسي . ح اى من الموت او المرض او دوامة او العجز عن حمل اعباء النبوءة او او العجز عن النظر الى الملك او عدم الصبر على اذى قومه او قتلهم اياه

او مفارقة الوطن او تكذيبهم او تغييرهم له او جنون الكهانة ، وابطله ابن العربي ، او من الهواجس وهو مردود بأن الهاجس لا يستقر وهذا مستقر لحصول المراجعة بينهما واسلم الاقوال الثلاثة الاول (ص : 380 مجموع).

نلاحظ ان تعليقه وتوضيحه يأتي مؤخرا يعقب به بعد ان يأتي بأقوال الشراح في المسألة وان لم يكن له في الاقوال العديدة تعقيب رجح بعضها ...

وحرف (ح) الذي يكرر ايراده في تعليقه يرمز به الى ابن حجر صاحب فتح الباري وقد وسمه بشيخ شيوخنا شهاب الدين بن حجر .

2 ـ انشاء الشريد من ضوال القصيد :

ذيل به نظم الشاطبية في علم القراءات اطلعت عليه مخطوطا ضمن مجموع بالمكتبة العامة بتطوان ، مكتوب بخط مغربي جميل ، بارز العناوين واسماء السور بخط غليظ احمر .

ابتداه بعد البسملة والتصلية بقوله : (الحمد لله الذي من علينا بوراثة كتابه العزيز ووفقنا ادمان تلاوته حتى يرزقنا في ميدان حفظه اى تبريز ... وبعد فهذا انشاد الشريد من ضوال القصيد رتبته ابدع ترتيب ...) .

التعوذ والبسملة والفاتحة مكية ...

بعد هذا العنوان يأتي بوجوه القراءة في اصوات وحروف من البسملة والفاتحة يقررها ثم يستشهد عليها بقراءة القراء المشهورين ، فينتقل الى سورة البقرة يذكر منها آيات معدودات ، ثم التي بعدها الى ان ياتي على جميع سور القرءان .

وفي بداية كل سورة يذكر هل هي مكية او مدنية ... مع الاشارة الى عدد آياتها بالحروف كاشارته الى عدد آيات سورة البقره ب (رفه) 285 آية .

وعقب على بعض القصيد الذي أورده مع الآيات الاولى من سورة (طه) فقال : (وقد نظمت فيها رجزا يدفع اللبس عن فواصلها ...) رأيت ان أثبته هنا مشروحا باختصار وهو :

وهاك من فواصل الممال — كشف قناع الوهم والخيال

للمدنيين وللمكي — والشام والكوفي والبصري

مقربا نظامه المنقاد — ما بعد القيسي والمجراد

فواصل الآى رؤوسها . قال الجعبري وهي كلمات أواخر الآى بمنزلة قوافي الشعر وهو مقتضى عبارة غير واحد كالحافظ في ايجاز البيان الا انه قال في كتب عدد الآى ما نصه : (واما الفاصلة فهي الكلام التام المنفصل مما بعده ، والكلام التام قد يكون رأس آية وغير رأس آية وكذلك الفواصل يكن رؤوس آى وغيرها ، فكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية فالفاصلة تعم النوعين ولذلك ذكر سيبويه في تمثيل الفواصل يوم يات . وما كنا نبغ . وهما غير رأس آية باجماع مع اذا يسرى . وهو رأس آية باتفاق) .

وكما ياتي المؤلف بهذه البيانات المتنوعة في القراءات التي كان يتوفر على علم واسع فيها ، ياتي بين حين وآخر بفوائد ، منها :

(فائدة . اتفق الرسام على كتب بضنين بالضاد وان اختلف فيه القراء قال في العقيلة : والضاد في بضنين تجمع البشرا . قال الجعبري لكن في الوضع الكوفي يرفع للضاد خطيط يشبه خط الظاء وهو معنى قولنا فيالعقود : والضاد في كل الرسام تصورت . وهما لدى الكوفي مشتبهان) .

وكلمة بضنين هي من الآية الكريمة : (وما هو على الغيب بضنين) الآية 24 من سورة التكوير .

3 ـ الكليات الفقهية :

عرف المؤلف بالهدف من كتابه بقوله : (قصدت به الى ما حضر من كليات المسائل الجارية عليها الاحكام ... الى ما يطرد اصله ولا يثبت

نقص حكمه والى كل جملة كافية ودلالة صادقة ، والى كل قليل يدل على كثير ، وقريب يدني من بعيد وبنيتها على المشهور من مذاهب العلماء المالكية وما جرى عليه عمل السادات الائمة ... وكان سبب جمعنا لها اقامتنا في بعض الايام بطريق تامسنا حين توجهنا للقاء مع الشاوية حين طلبوا على ذلك في اوائل عام 893 هـ ...) .

هكذا أفادنا بمقصوده من جمع هذه الكليات ، وبتاريخ ومكان جمعها والهدف منها ومصدرها ، ولكن غاب عنا ان نعرف بالتحديد لماذا كان توجهه الى تامسنا والسبب الدافع الى اللقاء بالشاوية ، ولعل ذلك يرجع الى نزاع ربما حدث بين بعض الجماعات في شأن العقارات احتاج الى تحكيم واصلاح بدليل قوله : (طلبوا مني ذلك) .

وعلى كل حال فكليات ابن غازي هذه من مبتكراته وهي مسائل فقهية يبتديء كل واحدة منها بلفظ : « كل » في 21 كتابا من فقه المعاملات ابتداها بكتاب النكاح واختتمها بكتاب الحدود ، والمسائل أو الكليات التي بين كتاب وآخر تختلف قلة ، وكثرة حسب اهمية تلك الكتب ، ففي الاقضية ـ مثلا ـ اورد نحو 62 كلية بينما أورد في العدة 6 كليات فحسب ، وهذان نموذجان منها :

ـــ من كتاب النكاح : كل ما لا يجوز الجمع بينهما من ذوات المحارم والنسب اذا غدا احداهما ذكرا واخرى انثى لا يحل لاحدهما ان يتزوج الآخر فلا يجوز الجمع بينهما .

ـــ من الشفعة : كل شفيع استشفع قبل ان يعلم قدر الثمن كان مخيرا بعد علمه بقدره في الاخذ او الترك .

وهي كما ترى قواعد فقهية واضحة مطردة ومفيدة .. مما يدل ان ابن غازي كان له باع طويل في معرفة دقائق الفقه يبلغ به الى درجة الاجتهاد .

واخبرت ان كتاب الكليات هذا مطبوع ولكنني لم اجد رصة مواتية للبحث عنه في مظانه ، فاضطررت ان اطلع على نسخة مخطوطة ضمن

مجموع بالمكتبة العامة بتطوان تتكون من 18 صفحة متوسطة ، عدد سطور كل صفحة منها 17 ، لم يعرف ناسخها بنفسه ولا بتاريخ النسخ .

4 ـ شفاء الغليل في حل مقفل خليل :

بين فيه ما غفل عن شرحه بهرام من المسائل ، او ما كان شرحه لها غير تام بعد أن أشاد بمناقب الشيخ خليل ، وذكر بعض مصطلحاته في مصنفه استنتجها بالاستقراء فقال : (ولقد عني تلميذه أبو البقاء بهرام بحل رموزه واستخراج كنوزه) بأطرف عبارة والطف اشاره الا اماكن ضرب عنها صفحا او لم يجدها شرحا فتحرك مني العزم الساكن لتتبع تلك الاماكن فشرحتها في هذا الموضوع بقدر الاستطاعة ... وأودعته مع ذلك نكتا جملة كل نكتة تساوي رحلة وسميته بشفاء الغليل في حل مقفل خليل ...

توجد بالمكتبة العامة بتطوان نسختان مخطوطتان من هذا المؤلف احداهما كاملة ، خطها متوسط الوضوح ، تتكون من 431 صفحة كل صفحة منها على 25 سطرا . والثانية مبتورة الاخير بنحو ورقة او ورقتين . وهذا نموذج من هذا الكتاب في باب الطلاق :

(قوله : وفي لزومه (الطلاق) بكلامه النفسي خلاف . عدل عن التعبير بالنية الى التعبير بالكلام النفسي لما حرره القرافي في الفرق الثاني من قواعد ، اذ قال اختلف العلماء في الطلاق بالقلب من غير نطق واختلفت عبارات الفقهاء فيه فمنهم من يقول في الطلاق بالنية قولان وهم الجمهور ومنهم من يقول من اعتقد الطلاق بقلبه ولم يلفظ بلسانه ففيه قولان وهذه عبارة ابن الجلاب ، والعبارتان غير مفصحتين عن المسألة ... وانما العبارة الحسنة ما أتى به صاحب الجواهر وذكر ان ذلك معناه الكلام النفساني ولم يتلفظ به بلسانه فهو موضع الخلاف ...) .

5 ـ تحرير المقالة في نظم نظائر الرسالة :

مخطوطة صغيرة لطيفة تتكون من ثلاث صفحات تشتمل على 43 بيتا. وموضوعها كما يظهر من اسمها نظم نظائر ومشكلات الرسالة الفقهية .. توجد هذه المخطوطة ضمن مجموع تحت عدد : 890/4 بالمكتبة العامة بتطوان ، وهذا نموذج من أبياتها :

ذكـــر ينبغـــي

وللوجوب ينبغي لدى السفـــــر والثوم والاذن وتعبيـــر ظهـــــر
والخلف في الفسل وتعليم الصغار والصوم والهجران عنهم اشتهـــر
وكـــل ما بقـــي للاستحبـــــاب وذاك أصلهـــا بـــلا ارتيـــــاب

وقد فرغ ابن غازي من كتابتها سنة 867 هـ كما قال في آخرها :

كمل عام السبـــع والستينـــــا بعـــد ثمانمائـــــة سنينـــــا

6 ـ امداد ذوي الاستحقاق ببعض زوائد المرادي وفوائد ابـــي اسحــــــاق :

حاشية على الفية ابن مالك لطيفة مفيدة ، نبه فيها على مواضع من كلام المرادي مع نقل فوائد الشاطبي وتحقيقاته . كما اومأ الى ذلك والى تاريـــخ اتمامــــــه .

« هنا انتهى ما قصدنا لجمعه من حل بعض مشاكل كلام الامام ابـــي علي المرادي وتطريزه ببعض ما يستملح من نكت ابي اسحاق الشاطبـــي برد الله تعالى ضريحهما وذلك في الحادي والعشرين من ذي الحجة 898».

وقد تتبع بالايضاح والتعليق هذه المواضيع في الفية ابن مالك من أول بيت الى آخره . اطلعت على نسخة مخطوطة من هذا المؤلف بالمكتبة العامة بتطوان تنقصها الورقة الاولى . وهي ضمن مجموع تحت عدد 534 م صفحاتها 229 ، وأوراقها بيضاء متوسطة الحجم ، عدد سطور الصفحة 21 كتب الشرح بخط أسود ، والمتن والعناوين بالاحمر ، والى القارىء الكريم نموذجا من تحليلـــه :

(وقوله أحمد ربي الله) جاء به بصيغة الفعل ليظهر ولايـــة ذلـــك بنفسه وعمله تحقيقا للعبودية ولفظ الجلالة بدل من ربي او عطف بيـــان ، وخير مالك بدل او منصوب على المدح ...

7 ـ الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون :

كتاب نفيس ومفيد في تاريخ مكناسة وأخبار خططها عبر التاريـــخ وتراجم اعلامها المشهورين ، تتجلى فيه كفاءة ابن غازي وقدرته الانشائية، في التأليف واستحضار الاحداث وتصرفه فيها ، استهله بهذه الافتتاحية التي تشعر بحاله وقصده : (الحمد لله الذي حبب الاوطان للظاعنين من أهلها والقطان . . .) والكتاب مطبوع 1384 هـ ـ 1964 م بالمطبعة الملكية بالرباط مع تحقيق مؤرخ المملكة عبد الوهـــاب بن منصور يشتمل على 74 صفحة من القطع المتوسط ، تتبعت قراءته من أوله الى آخره ، فانطبع في ذهنـــي ما يلـــي :

1 ـ تعرض المؤلف وهو يتحدث عن مكناسة الزيتون ينقل اخبارها عن غيره من الذين سبقوه من المؤرخين عند ما كانت حوائر ، جمـع حارة ـ كما في استعماله ـ بمعنى انها لم تكن مخططة في بداية أمرها لتكـــون مدينـــة (ص : 8) .

2 ـ ذكر خلاله ما جرى لهذه المدينة من حروب وفتن عندما نهض أمر الموحدين على المرابطين وهو هنا يحمل نوعا ما على الموحدين ويصفهم بالوحشية والقسوة وينقل لهم وصف معركة كاسحة بسوق مكناسة عند ما هاجموها فرسانا يرتدون زي الجنود المرابطين ومتلثمين للتعمية فقصدهم أهل مكناسة مجتمعين مرحبين ظنا انهم مدد لهم من جيوش المرابطيـــن وحتى ادوارهم جميعا حملوا عليهم حملة فظيعة وهم يزيحون اللثام عـــن وجوههم ويرددون شعار الموحدين : (ابابا المهـدي :) فاستاصلوهـــم (ص : 14) .

3 ـ كان المؤلف حر الفكر من الخرافات والتدجيل ، فعند ما ذكر كتابا ينسب الى اقوال المهدي وخليفته عبد المومن كان اتباع الموحدين يهيبون به شغفا واتباعا اشاد باسماعيل بن محمد المصالي الذي اخفى هذا الكتاب على الناس من الوجود محاربة منه للابتداع ، وان كان هو بدوره كان من اتباع الموحدين سياسيا (ص : 30) .

4 ـ ذكر في هذا الكتاب تراجم مشاهير علماء مكناسة ممن ولدوا وعاشوا فيها اصالة ، او وردوا عليها واستوطنوها قبل عصره حتى وصل

الى شيوخه فذكر بعضهم ومنهم جده لامه وابوه وامه التي اعتبرهـــا في مقدمة شيوخه كما تقدم (ص : 51 ــ 63) .

هذه هي مؤلفات ابن غازي الامام التي أمكنني الوقوف عليها وتصفحها وهنالك أخرى كثيرة متداولة بين الناس في المكتبات العامة او الخاصة اطلعت بالاضافة الى ما سبق على اسماء هذه منها :

8 ــ تكميل التقييد وتحليل التعقيد : كمل به تقييـــد ابي الحسن الزرويلي على المدونة .

9 ــ الفهرسة المسماة : (التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال اهـــل المنزل والناد) بين فيها تراجم شيوخه والعلوم التي أخذها عنهم .

10 ــ منية الحساب وشرحها المسمى بغية الطلاب في مجلد مطبوع متـــــداول .

11 ــ ذيل الخزرجية في العروض وشرحه المسمى بامداد أبحـــر القصيد ببحري أهل التوليد .

12 ــ الجامع المستوفى بجداول الحوفى ، استخرج فيه مسائـــل الحوفية في الفرائض .

13 ــ المسائل الحسان المرفوعة الى حبر فاس والجزائر وتلمسان اتبثت انها مطبوعة ضمن الجزء الثالث من ازهار الرياض لم اتمكن مـــن العثـــور عليه بعـــد .

14 ــ اسعاف السائل في تحرير المقاتل والدلائل .

15 ــ نظـــم مراحـــل الحجـــاز وشرحـــــه .

16 ــ مؤلف صغير في ماحيا ــ يعني الخمر المقطـــر من التيـــن غالبا . . ــ سماه مذاكرة ابن اسحاق بن يحيى (35) .

---

(35) اتحاف اعلام الناس جـ : 4 ص : 2 ــ ذكريات مشاهير رجال المغرب ص : 23 .

17 ـ استنباطه من قوله عليه السلام : (يا أبا عمير ما فعل النغير ؟) 250 فائدة (الروض الهتون ص : 51) .

وفي ختام هذا البحث ، لا أنسى ان أذكر الذين لفتوا نظرنا من المسؤولين المحترمين في مديرية التعليم العالي الاصيل بالرباط وفي كلية الشريعة الناهضة بفاس ، الى مثل هذا العمل النبيل ، لاجل احياء تراثنا المجيد الاصيل وكشف الستار عن بعض مجهود اولئك الجنود المجهولين من علمائنا الابرار الصالحين ... رحمهم الله وغفر لنا ولهم .

محمد سلامة